المجمع 22 (1447/ 2026)، 465-472

مراجعات في الكتب والأدبيّات

ياسين كتّاني[1]

مراجعة في كتاب بروفيسور محمّد أمارة

الكلمة والسّيف: دور اللغة في بناء الإمبراطوريّات وأثرها في البشريّة

(عمّان: دار الشروق. 356 صفحة)

مقدّمة

ينطلق كتاب ***الكلمة والسّيف*** من رؤية جذريّة تُعيد التفكير في موقع اللّغة داخل التاريخ الإنسانيّ، إذ يرى المؤلّف أنّ اللّغة ليست مجرّد أداة للتخاطب أو وعاء للثقافة، بل هي قوّة فاعلة شكّلت الحضارات وصاغت الإمبراطوريّات وحدّدت مصائر الشعوب. فاللّغة، كما يذهب الكتاب، ليست نتاج الفكر فحسب، بل هي أيضًا نتاج السّلطة؛ تخلّقت في رحم القوّة، ونمت في ظلّ الصّراع، وامتدّ أثرها مع امتداد السّيوف التي حملتها.

من هذه الفرضيّة المركزيّة، يتقدّم الكتاب في مسارٍ تحليليّ تاريخيّ وفلسفيّ يربط بين الكلمة والسّيف، بين الفكر والهيمنة، ليكشف كيف أنّ اللّغة كانت دائمًا السلاح الخفيّ الذي يوازي حدّ الحديد، بل يتفوّق عليه في المدى والبقاء. فالإمبراطوريّة التي تُقيم سلطانها بالسّيف تُخلِّد سلطانها بالكلمة، لأنّ الكلمة وحدها تملك أن تُحوِّل القوّة الماديّة إلى معنى رمزيّ يتجذّر في الوعي الجمعيّ ويمتدّ عبر الزمن.

[1] أكاديميّة القاسمي.

يبني المؤلف كتابه في ستّة أبواب تتدرّج من التحليل التاريخيّ إلى المقاربة السوسيولغويّة:

- الباب الأوّل يبيّن كيفيّة تطوّر اللّغة جنبًا إلى جنب مع التطوّر البشري، ويلقي الضّوء على أهميّة اللّغة في التبادل الثقافيّ وصياغة الهويّة ودورها المحوريّ في التفاعلات الاجتماعيّة والاقتصاديّة والسياسيّة والعسكريّة والدينيّة والثقافيّة على مرّ العصور.
- الباب الثاني يعرّف مفهوم الإمبراطوريّة ويحلّل أنماطها التاريخيّة ويركّز على المتشابه والمختلف بينها.
- الباب الثالث يدرس اللّغة كأداة في بناء الإمبراطوريّات وإدارتها؛ حيث باتت السياسات اللغويّة أداة حاسمة في إدارة الشعوب والأقاليم، ويناقش إسهام التنوّع اللّغويّ والنُّظُم الكتابيّة في تعزيز الهيمنة الإمبراطوريّة.
- الباب الرابع يستعرض اللّغات التي شكّلت الإمبراطوريّات وغابت اليوم عن المشهد، وتراجعت إلى هامش المشهد الحضاري تاركة إرثًا خصبًا من الذاكرة والآثار، كالسومريّة، والأكاديّة، والمصريّة القديمة، والآراميّة، واللاتينيّة.
- الباب الخامس يستعرض اللّغات التي لعبت أدوارًا حاسمة في التاريخ الإمبراطوري وما تزال حيّة في جسد الحضارة، فكانت ولا تزال أدوات نفوذ ووسائل تشكُّل ثقافيّ وامتداد سياسيّ كاليونانيّة، والصينيّة، والفارسيّة، والعربيّة، والاسبانيّة، والبرتغاليّة، والروسيّة، والإنجليزيّة.
- أمّا الباب السادس الأخير فيناقش آثار اللّغة في العصر الحديث، ما يتّصل منها بالاستعارة اللغويّة، وتحدّيات التنوّع اللّغويّ، والامبرياليّة والاستشراق واندثار اللّغات.

الإطار النظريّ

يؤكّد المؤلّف أنّ اللّغة ليست مجرّد نظام من الأصوات، وإنما بنية تُعبّر عن الوعي الجمعيّ وتمكّن الإنسان من حفظ إرثه الرمزيّ والماديّ عبر العصور. فالتاريخ الإنسانيّ لا يمكن فهمه بمعزل عن تطوّر اللّغة، التي مثّلت الأداة الأهمّ لتوثيق التجربة البشريّة وتوسيع مداركها المعرفيّة. ويرى

أنّ اللّغة كيان ديناميكيّ لا يمكن رسم حدوده بدقّة تاريخيًّا أو جغرافيًّا، إذ تتبدّل وظائفها ودلالاتها تبعًا للسياقات الاجتماعيّة والسياسيّة التي تعمل ضمنها، ويراها مرنة متأقلمة، مؤكّدًا على طاقتها الحيويّة في التكيّف مع التحوّلات التاريخيّة.

ويؤسّس المؤلّف رؤيته على أنّ الإنسان واللّغة وجهان لحقيقة واحدة. فمنذ أن نطق الإنسان أولى كلماته، بدأت حضارته. الكلمة هي التي نظّمت العلاقات، وثبّتت الذاكرة، وصاغت القانون، وحوّلت الغريزة إلى فكر، والفكر إلى مجتمع. وبها انتقل الإنسان من الترحال إلى الاستقرار، ومن الجماعات الصغيرة إلى بناء الدول والإمبراطوريّات. ولهذا فإنّ اللّغة ليست انعكاسًا للعقل الإنسانيّ فحسب، بل هي البنية العميقة التي تشكّل هذا العقل ذاته.

يرسم الكتاب رحلة اللّغة عبر التاريخ، منذ بداياتها الشفويّة الأولى إلى الثورة الكتابيّة، ثم الطباعة، وصولًا إلى العصر الرقميّ الذي غيّر أنماط التواصل الإنسانيّ. في كلّ مرحلة من هذه المراحل، كانت اللّغة تتحوّل من أداة للتعبير إلى أداة للهيمنة، وتعيد صياغة علاقتها بالسلطة والمعرفة. ومع اختراع الكتابة، وُلدت البيروقراطيّات الأولى، وتكوّنت الدّول الكبرى التي حفظت وجودها عبر الوثائق والقوانين والسجلّات. ثم جاءت الطباعة ففتحت آفاقًا غير مسبوقة لتوحيد اللّغة ونشرها، وأسّست لعصرٍ جديد من الهيمنة الثقافيّة. واليوم، في ظلّ الرقمنة، تتجاوز اللّغة الحدود لتصبح سلطة كونيّة تشكّل الاقتصاد والسياسة والوعي الجمعيّ.

اللّغة والإمبراطوريّات

في السياق التاريخيّ، يُبيّن المؤلّف أنّ الإمبراطوريّات لم تنشأ من فراغ، بل وُلدت من رحم التحوّلات الاقتصاديّة والاجتماعيّة التي أعقبت الثورة الزراعيّة، حين تحوّل الإنسان من الصيد والترحال إلى الزراعة والاستقرار. ومع الفائض الاقتصادي ظهرت الحاجة إلى التنظيم، فكانت اللّغة وسيلة الإدارة والضبط. وهكذا ارتبط ميلاد الإمبراطوريّات بميلاد اللّغة المؤسسيّة، التي صارت رمز السلطة ومِحور الهويّة المشتركة. ويتوقّف المؤلّف عند دور اللّغة في ترسيخ سلطة الإمبراطوريّات القديمة:

في الإمبراطوريّة الرومانيّة كانت اللاتينيّة أكثر من لغة قانونٍ وإدارة، لقد كانت وسيلة لخلق ثقافة مشتركة تصهر الشعوب المختلفة في هويّة إمبراطوريّة واحدة، وظلّ إرثها ممتدًّا في اللّغات الرومانيّة حتى اليوم.

وفي الإمبراطوريّة الإسلاميّة، قامت اللّغة العربيّة بدور أساسيّ وحاسم في نشر الدّين والمعرفة، فجمعت العرب والعجم في فضاء حضاريّ واحد امتدّ من الأندلس إلى الهند، وأسهمت في نهضة علميّة وثقافيّة كبرى.

وفي الإمبراطوريّة البريطانيّة، حملت اللّغة الإنجليزيّة رسالتها إلى العالم، فغدت لغة البحر والتجارة والتعليم، وتحوّلت بعد أفول الاستعمار إلى لغة العولمة ذاتها.

وهكذا، لم تكن اللّغات مجرّد رموز صوتيّة، بل مشاريع حضارية تعبّر عن إرادة السلطة وتستبطن مشروعها الثقافيّ. فالكلمة كانت دومًا شريكة السيف في تثبيت الهيمنة؛ وإذا كان السيف يُخضِع الجسد، فإنّ الكلمة تُخضِع الوعي، ومن ثَمّ فهي الأعمق أثرًا والأبقى حضورًا. غير أنّ المؤلّف لا يتوقّف عند هذا البعد الإمبراطوريّ للّغة، بل يوسّع نظره ليُبرز أنّ اللّغة كانت أيضًا ميدانًا للمقاومة؛ فالشعوب المغلوبة لم تكن دائمًا ضحيّة صامتة، بل استخدمت اللغة لإعادة بناء هويّتها، ولإنتاج خطابٍ ثقافيّ مضادّ يتحدّى السائد ويفكّك سلطة الغالب. من هنا، تصبح اللّغة ساحة مزدوجة للهيمنة والتحرّر في آن، فهي تخلق السلطة بقدر ما تتيح إمكان مقاومتها.

التطوّر التاريخي للقوّة والهيمنة

يقدّم الكتاب قراءةً دقيقة في تحوّلات مفهوم الإمبراطوريّة من القديم إلى الحديث. فبينما كانت الأرض والموارد الطبيعيّة هي جوهر الصراع في العصور القديمة، انتقلت بؤرة السّيطرة في العصر الصناعيّ إلى الآلة والإنتاج، ثمّ في القرن الحادي والعشرين إلى المعرفة والمعلومات. وهكذا صارت السّيطرة على تدفّق المعلومات والتأثير في الوعي الجماعيّ هي السلاح الجديد للإمبراطوريّات المعاصرة.

لقد تغيّرت أدوات الهيمنة، لكن جوهرها اللّغويّ ظلّ ثابتًا؛ فكما كانت الكلمة تُستخدم لتبرير الحروب وتثبيت الشرعيّة السياسيّة، أصبحت اليوم تُستخدم في الإعلام والتكنولوجيا لتوجيه الرأي العام وصياغة القِيَم والسلوكيات. اللّغة لم تَعُد تُفرَض بالسّيف، بل تُزرع في اللّاوعي عبر الخوارزميّات والمحتوى الرقميّ الذي يصنع تصوّرات الإنسان عن العالم.

وفي تحليلٍ ثريّ لتاريخ العلوم والمعرفة، يُبيّن بروفسور أمارة أنّ نشأة العلم الحديث ارتبطت أيضًا بالمشروع الإمبراطوريّ الأوروبيّ. فبينما أسهمت حضارات الصين والهند والعرب في تأسيس المعارف الأساسيّة، فإنّ الغرب هو من نظّم هذه المعارف في بنية علميّة ومؤسسيّة متكاملة في سياق توسّعه الإمبراطوريّ، فقد تضافرت لدى أوروبا ثلاثة عناصر حاسمة: العلم، واللّغة، والسّلطة، في مشروعٍ حضاريّ متكامل جعل منها مركزًا للمعرفة والنفوذ.

ويتقدّم الكتاب بعد ذلك إلى قراءة الراهن العالميّ، فيشير إلى أنّ مفهوم الإمبراطوريّة في القرن الحادي والعشرين لم يختفِ، بل تغيّر شكله ووسائله. القوة اليوم لم تعُد عسكريّة بالأساس، بل صارت قوّة ناعمة تُمارَس عبر الاقتصاد، والتكنولوجيا، والإعلام، والثّقافة.

الولايات المتّحدة، مثلًا، لم تعُد تحتاج إلى احتلال مباشر لتفرض هيمنتها؛ إذ تكفيها سيطرتها على النظام الماليّ العالميّ، وعلى شركات التكنولوجيا الكبرى، ومنصّات الإعلام الرقميّ. هذه الأدوات اللّغويّة والمعرفيّة الجديدة هي «السيوف الحديثة» التي تُدار بها الإمبراطوريّات دون دماء.

في المقابل، يذكّر المؤلّف بأنّ هذه الهيمنة اللّغويّة ليست قَدَرًا محتومًا، إذ تُقابلها دومًا حركات لإحياء اللّغات المهمّشة، وصون التنوّع اللّغويّ بوصفه قيمة إنسانيّة وحضاريّة؛ فحماية اللّغات المهدَّدة بالاندثار ليست مسألة تراث فحسب، بل هي مسألة عدالة ثقافيّة تُعبّر عن احترام التنوّع وحقّ الشعوب في صياغة ذواتها بلغاتها الأصليّة.

التحوّلات العالميّة والتحدّيات المعاصرة

في فصوله الأخيرة، يتناول الكتاب التحوّلات الكبرى في الوعي الإنسانيّ المعاصر، فيرى أنّ الإمبراطوريّات القديمة كانت مشغولة بثلاث قضايا كبرى: الجوع، والوباء، والحرب. أمّا اليوم، فقد تجاوز الإنسان هذه التحدّيات نسبيًّا، وبدأ يبحث عن السيطرة على الشيخوخة والموت، وعن السعادة والخلود، في حين أصبحت التهديدات الجديدة كونيّة الطابع، كخطر التغيّر المناخيّ، والحروب النوويّة، وثورة التكنولوجيا التي قد تخرج عن السيطرة.

في هذا السياق الجديد، تصبح اللّغة - بمعناها الأوسع، أي القدرة على إنتاج المعنى وتنظيم العالم الرمزيّ - هي الساحة المركزيّة للصّراع القادم. فالإمبراطوريّات المقبِلة لن تُبنى بالسلاح، بل بالبرمجيّات والذكاء الاصطناعيّ والمحتوى المعرفيّ. إنها إمبراطوريّات لغويّة رقميّة، تُعيد تشكيل العالم دون جيوش، وتفرض نفوذها من خلال اللّغة التي تُكتب بها خوارزميّات المستقبل.

كلمة أخيرة

يستقي المؤلّف، لدعم مقولاته الهامّة في هذا الكتاب، من علوم ومعارف متعدّدة: من علم اللّغة والتاريخ والسياسة والفلسفة. ويقدّم مراجعة متماسكة لأدوار اللّغة في بناء الإمبراطوريّات، ويربط بذكاء بين التحوّلات الاقتصاديّة والسياسيّة والثقافيّة والتقنيّة، مع توظيف ثريّ للأمثلة التاريخيّة. يُبرِز الكتاب القوّة الناعمة للّغة وأهميّتها في الحفاظ على الهيمنة الثقافيّة والسياسيّة.

ويختم المؤلّف كتابه بخلاصة عميقة مفادها أنّ اللّغة كانت ولا تزال السّيف الأشدّ مضاءً في التاريخ البشريّ. فالإمبراطوريات التي انطفأ سيفها ظلّت كلمتها حيّة في الذاكرة والوعي، لأنّ الكلمة قادرة على إعادة خلق العالم بعد كلّ سقوط. وبين الكلمة والسّيف تمتدّ مسيرة الإنسان؛ يبدأ بالعنف ليثبت وجوده، ثمّ ينتهي بالكلمة ليخلّد معناه.

إنّ هذا الكتاب لا يكتفي بأن يقدّم قراءةً في التاريخ، بل يوجّه نداءً فكريًّا للحاضر والمستقبل: أن نُدرك أنّ اللّغة ليست حيادًا، بل مسؤولية؛ وأنّ حماية تنوّعها هي حماية للحريّة نفسها. ففي النهاية، ليست الإمبراطوريّات التي تنتصر هي الأقوى سلاحًا، بل تلك التي تعرف كيف تجعل كلمتها تُسمَع بعد انطفاء مجد سيوفها. ويؤكّد أن اللّغة ليست مجرّد وسيلة تواصل، بل عنصر أساسي في بناء الإمبراطوريّات وصياغة التاريخ البشريّ. إنها أداة للهيمنة، لكنها أيضًا وسيلة للمقاومة والإبداع. ومن خلال تقديمه رؤية شاملة للعلاقات بين اللّغة والسّلطة، يُبرِز أهميّة حماية التنوّع اللّغوي وتعزيز التعدّديّة الثقافيّة في عالم سريع التحوّل.

يمثّل *الكلمة والسّيف* مساهمة قيّمة في الدّراسات اللّغويّة والسياسيّة والثقافيّة، ودعوة للتفكير في القوّة الخفيّة للّغة وأثرها المستمرّ في تشكيل الهويّات وإعادة توزيع موازين القوّة. ومع ذلك، يمكن الإشارة إلى بعض القيود: أولًا، يركّز الكتاب بشكل أكبر على البعد الغربي والإمبريالي للّغة، مع تناول محدود للّغات غير الغربيّة، رغم الإشارة إلى العربيّة والفارسيّة والصينيّة. ثانيًا، يمكن تعميق التحليل حول العلاقة بين اللّغة والقوّة الاقتصاديّة الرقميّة الحديثة، بما في ذلك المنصّات والشبكات العالميّة.

من مراجع الكتاب

أمارة. محمد. *الكلمة والسيف: دور اللّغة في بناء الإمبراطوريّات وأثرها في البشريّة*. عمّان: دار الشروق للنشر والتوزيع، 2025.

أمارة، محمد. *لغتي هويّتي، نحو سياسة لغويّة شموليّة لمواجهة تحدّيات اللّغة العربيّة في إسرائيل*. كفر قرع: دار الهدى؛ الأردن: دار الفكر، 2020.

أمارة، محمد. *العَوْلَمَة والعَبْرَنَة وتجلّياتهما في المشهد اللّغويّ العربيّ-الفلسطينيّ في إسرائيل*. بيروت: مؤسّسة الدّراسات الفلسطينيّة، 2023.

سليمان، ياسر."اللغة والهوية: الترميز المراوغ." *الأبحاث*، 67 (2019): 123-154.

سليمان، ياسر. *اللغة العربية في ساحات الوغى: دراسة في الأيدلوجيا والقلق والإرهاب*. بيروت: المركز العربي للأبحاث والسياسات، 2023.

نيدهام، جوزيف. *موجز تاريخ العلم والحضارة في الصين*. ترجمة: محمد غريب جودة. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990.

הררי, יובל. *היסטוריה של המחר* . אור יהודה : דביר- מוצאים לאור בע"מ, 2015.

Anderson, Benedict. *Imagined Communities: Reflections on the Origin and Spread of Nationalism*. London: Verso, 1983.

Crystal, David. *Language Death*. Cambridge: Cambridge University Press, 2000.

Castells, Manuel. *The Rise of the Network Society*. B Cambridge, Massachusetts: Blackwell publishers, 1996.

Fabian, Johannes. *Language and colonial power: The appropriation of Swahili in the former Belgian Congo 1880–1938*. Cambridge: Cambridge University Press, 1986.

Said, Edward. *Culture and Imperialism*. New York: Alfred A Knopf, 1993.

Said, Edward. *Orientalism*. NY: Pantheon Books, 1978.

Smith, Anthony. *National identity*. Reno: University of Nevada Press, 1991.

Spolsky, Bernard. *Language policy*. Cambridge: Cambridge University Press, 2004.

Tilly, Charles. *Coercion, capital, and European states, AD 990-1992*. Chichester, UK: Blackwell, 1992.